

في كل معدن، ولا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقل اليد؛ ولا يرتفع في السوم. واسم الذهب يُتَطَيَّرُ منه، ومن لؤمه سرعته الى اللثام. وهو فاتن فاتك لمن صانته: وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران، والزجاج لا يحمل الوضر، ولا يداخله الغمر. ومتى غسل بالماء وحده، عاد جديداً، وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة وصناعته اعجب.

وحكى دعبل الخزاعي الشاعر قال: (١)

أقمنا يوماً عند سهل بن هرون، وأطلنا الحديث حتى أضربه الجوع، فدعا بغداده، فأق بصفحة فيها مرق تحته ديك هرم، فأخذ كسرة وتفقد ما في الصفحة فلم يجد رأس الديك، فبقي مطرقاً ثم قال للغلام: أين الرأس؟ قال: رميت به. فقال: ولم؟ قال: لم أظنك تأكله. قال: ولم ظننت ذلك فوالله اني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه؟ ولو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفأل لكرهته. أما علمت أن الرأس رئيس يتفائل به، وفيه الخواس الخمس، ومنه يصيح الديك. ولولا صوته ما أريد، وفيه عرفه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بصفائها المثل فيقال: شراب كعين الديك، ودماعه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان منه. وإن كان بلغ في نبلك أنت لا تأكله فعندنا من يأكله. أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق؟ انظر أين رميته، فقال والله ما أدري قال: أنا والله أدري أنك رميت به في بطنك، فالله حسبيك.

هذا ومن بديع قوله: القلم لسان الضمير، إذا عرف أعلن أسراره، وأبان آثاره.

وقوله: إذا كان الحب يعمي عن المساوىء، فالبغض أيضاً يعمي عن المحاسن، وكان يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة، كما أن التقوي على الدواء أشد من الدواء . . .

(١) سرح العيون/١٥٣